مـــجـــلـــة دراســـات بيت الـــمـــقـــدس، 2020، 20(1): 85–102
DOI: 10.31456/beytulmakdis.691601

دور التاريخ في فهم السياسة الإسرائيلية: التشابه بين الحروب الصليبية والحركة الصهيونية أنموذجاً

عيسى بريجية*

ملخص: في إطار الصراع الإسرائيلي الفلسطيني تشن إسرائيل مع شريكها الغربي حرباً ضروسا على الشعب الفلسطيني والأرض المقدسة، إن الوجه الظاهر من هذه الحرب هو المواجهات والحروب العسكرية، إلا أن هناك وجها أخر لهذا الصراع لا يقل أهمية عن المواجهة العسكرية، ألا وهو الصراع على الهوية والرواية التاريخية. وقد كرس الصهاينة جهودهم في سبيل غاية واحدة، وهي إثبات أحقيتهم في الأرض المقدسة. ونظراً لإدراك الصهاينة بأهمية التاريخ ومدى سلطته على السياسة فقد قاموا ببذل جهود كبيرة من أجل تزييفه واختلاق حق تاريخي لهم في الأرض المقدسة. فقاموا بدراسة بعض النماذج التاريخية دراسة مستفيضة لأخذ العظة وتجنب الأخطاء التي وقعت فيها، وخير مثال على ذلك، الاهتمام الذي أبدوه في دراسة الحملات الصليبية. يأتي هذا البحث ليبين الأهمية التي أولاها الصهاينة للتاريخ وكيف تم استخدامه في اثبات حقهم في الأرض المقدسة، باختلاق تاريخ يهودي وطمس للتاريخ الفلسطيني، مستغلاً ضعف الوعي العربي والفلسطيني بأهمية التاريخ في تثبيت الأحقية في الأرض، وتناولت الدراسة أيضاً مسألة اهتمام الصهاينة بالحملات الصليبية، وذلك لتلافي المصير الذي لاقته الحملات الصليبية.

الكلمات المفتاحية: الأرض المقدسة، الدراسات اليهودية، التاريخ، الحملات الصليبية، الغرب.

The Role of History in understanding Israeli Politics: an Analogy between the Crusades and the Zionist Movement as a case study

ABSTRACT: *In the Israeli-Palestinian conflict, Israel with its Western alliance is continuing its extreme war against Palestine and its people. In addition to the military factor in this war, there is another important element, namely the controlling and reshaping of identity and historical narratives. The Zionists efforts are concentrated on one target: proving their eternal right to the Holy Land. Their awareness of the importance of history and its role in politics motivates the Zionists to reshape and fabricate historical facts to support their claims of the Holy Land. They had shown a great deal of interest in studying previous historical models to avoid their mistakes and conclude some lessons. One of these models is that of the Christian Crusaders which has been intensely studied. This research aims to show the level of Zionist interest in history and how they use this to prove their right to the Holy Land. They take advantage of the Arabs and Palestinians ignorance of the importance of history to recreate an Israeli history that erases*

* قسم التاريخ المعاصر، جامعة حاجي بيرم ولي، أنقرة/ تركيا، issa.zawahra@yahoo.com

Palestinian history. This paper also present Zionists' interests in the Christian Crusaders with a view to avoiding their mistakes.

KEYWORDS: *Holy Land, Israeli Studies, History, Crusaders, The West.*

مقدّمة

التاريخ علم يمكنك من معرفة الطريق إلى المستقبل من خلال فهم أحداث الماضي وبيئتها، والمحاولة للانفصام بينهما فإنه سيكون انفصاما نكدا لا يعود على أصحابها إلا بالخسران والوبال، فالتاريخ يسهم في الحفاظ على ذاكرة الشعوب حية، وذلك بنقل ثقافات الشعوب وأسلوب التعايش بينهم وقيمهم ومبادئهم من جيل إلى جيل فيعيش الأخير بخبرة الأول.

يحاول الجاهلون بالتاريخ ومنكرو دوره في حياة الشعوب إبرازه إلى النسل الجديد على شكل حكايات أو مجموعة من الأحداث التي تعكس ذكريات الماضي. بل إن هناك من ينكر وجود التاريخ أصلاً وذلك بحجة أن التاريخ يهتم بما مضى وانقضى من الأحداث، وما دامت قد انقضت، فهي غير ذات قيمة، فالمؤرخ وحده من يعيش في الماضي، والحقيقة أن هؤلاء لم يدركوا الطبيعة الديناميكية للتاريخ. فدراسة التاريخ لا تعني مجرد الاطلاع على الوقائع والأحداث التي مرت، وإنما تعني التعمق في دراسة وتحليل الأحداث وربطها بالبيئة التي وجدت فيها، ونقصد بالبيئة هنا الطبيعة الجغرافية والحالة الاقتصادية والثقافة المجتمعية وغيرها مما يحيط بتلك الأحداث التي قد تكون مؤثرة على وقوعها أو عدم وقوعها أو انحراف مساراتها ... كل ذلك في محاولة للخروج بفائدة يستنير بها الإنسان في عصره، فمن الطبيعي عند سيرنا في هذه الحياة أن يستلزم معرفتنا بما قطعناه في الماضي من الطريق إذا أردنا معرفة ما بقي منها،[1] فالتاريخ هو مرآة الشعوب والأمم، وعلى صفحاته ينعكس الماضي ويتجسد الحاضر ومنه يستشرف المستقبل، ولا حاضر ولا مستقبل لأمة بدون تاريخ، فمن طبيعة التاريخ أن يبث الروح الوطنية والقومية في الأجيال الناشئة، وقراءته تقوي اعتزاز المواطن بأمته، وبه يستطيع الإنسان الاسترشاد بتجارب السابقين، وبذلك يكون التاريخ مصدر إلهام حقيقي لعيش الإنسان وإبداعه وتضحياته.[2]

التاريخ يصنعه شعب ولكن يكتبه ويقيمه أشخاص، فهناك العديد من الأقوام والشعوب التي صنعت تاريخاً عظيماً، ولكنها لم تكتبه، فالشعب التركي مثلا لم يهتم مثقفوه على وجه الاجمال بكتابة تاريخه ،وهذا لا يعني أن الأتراك لم يصنعوا تاريخاً عظيماً[3]، في المقابل عرف العرب التاريخ وانتشرت حركة التأليف فيه، وترك مؤرخوهم آثاراً كثيرة، وصل إلينا جلها، على الرغم من ضياع الكثير منها عند سقوط بغداد والأندلس، ورغم أن ديننا الحنيف أبدا اهتماما بالغا بالتاريخ، وحث على أخذ العظة والعبرة منه، ودراسته والتأمل فيه، إذ نجد أن ثلثي القرآن الكريم هو تأريخ لأحداث وقعت وأخبار قصت

عن الأمم الأولى، فقال تعالى **{وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ}**[4] وفي موضع أخر **{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُوْلِي الأَلْبَابِ}**،[5] وقد ذكر المؤرخ حسين مؤنس في كتابه التاريخ والمؤرخون أن "العربي أحب التاريخ واهتم بقراءته، فمعظم ملوك وأمراء العرب كانوا مشغوفين بأخبار الغابرين، تقرأ عليهم أخبار الأولين، ولذلك نجد معظم التراث العربي في التاريخ، فلم يتركوا شيئا إلا وأرخوا له.

ولكن العربي كان أقل الناس اعتباراً بالتاريخ، فها هو معاوية بن أبي سفيان كان يقرأ عليه تاريخ الفرس، ولكن ما من خطأ وقع فيه الأكاسرة، إلا وقع هو فيه. وهذا هارون الرشيد قرأ تاريخ الأمويين و لم يعجبه أن عبد الملك بن مروان أوصى لأولاده الأربعة بالخلافة من بعده على نسق، ومع ذلك فهو نفسه أوصى لأولاده الثلاثة على الترتيب، فكانت حرب الأمين والمأمون، وقتل الثاني منهما الأول، وتضعضع ملك بني العباس".[6] فأين إذن الاستفادة من التاريخ؟ وهل ما زلنا نسير على نفس النهج في دراسة التاريخ؟ معظمنا متفقون على أهمية التاريخ ودوره في تنظيم حياتنا، ولكن الاستفادة المرجوة من التاريخ لم تتحقق، وما زلنا نقع في نفس الأغلاط التي حدثت في التاريخ، فالكثير من الناس يقرؤون التاريخ ليستفيدوا منه، وليتعظوا به، لكن العظة تحتاج إلى أدوات تختلف عن أدوات تحصيل المعرفة، فيجب على القارئ الذي يهدف إلى تحقيق الفائدة والاتعاظ أن يمتلك مهارات تحليل ومقاربة وربط المعلومات. هذا بالنسبة لقارئ التاريخ، أما كاتبه فأورد مقولة لفلهلم فريدرخ هيجل أوردها حسين مؤنس في كتابه السابق الذكر، وقال فيها: "إن تاريخ البشر كله يمكن أن يوصف بأنه عملية طويلة استطاعت البشرية خلالها أن تحرز تقدماً روحياً، وهذا التقدم هو ما استطاع العقل البشري أن يحرزه في طريق معرفته لنفسه...إن التاريخ يسير وفقاً لخطة، ومهمة الفيلسوف هي معرفة هذه الخطة"،[7] ومن المعروف أن التاريخ يحكمه خط سير، ولا بد لكل باحث في التاريخ أن يحاول الوصول إلى خط السير الذي يحكم التاريخ، وعليه أن يصيغ قواعد ونظريات لاستشراف المستقبل من خلالها، ويجب أن تكون هذه النظريات نابعة من تاريخ وثقافة ولغة الشعب نفسه، فلا يجوز استيراد نظريات لشعب ما وتطبيقها في تسيير شؤون شعب آخر.

وإذا ما حاولنا تشخيص فترتنا التي نعيش، فسنجدها تعاني من غياب المؤرخ الذي يعمل على استخراج الخطط والقوانين التي تحقق الوصول إلى العظة، واكتفوا برواية الأحداث، وعندما غاب ذلك المؤرخ غابت بغيابه كتابات عن ساحة اتخاذ القرار. وعندما يكون التاريخ هو آخر ما يهتم به السياسيون والقائمون على المنظومات التربوية والتعليمية، وجد هذا الإهمال الواسع لعلم التاريخ، وأنتج لنا أجيالًا لا ترى في التاريخ سوى مادة ثقيلة على النفوس، تدرس في آخر اليوم، ومن معلم لا يعقل شيئًا مما

يقول، وهذا بدوره أدى إلى ظهور أجيال آنية تفهم ما يحدث أمامها في لحظتها فقط، ثم ما تلبث أن تنسى تلك اللحظات والأحداث، خاصة مع كثرة الأحداث وتواليها السريع.[8]

وفي الجانب المقابل أبدى اليهود في عصرنا الحالي بتاريخهم اهتماماً فريداً، فمنحوه المكانة الأولى في المنظومة التربوية، وجعلوا معدل مادة التاريخ الأعلى بين كل المواد الدراسية، حيث يتقدم مقياس مادة التاريخ على مقياس اللغة العبرية ذاتها، كما أن لتدريس مادة التاريخ معايير ينبغي أن تتوفر في معلمه، إذ يجب أن يخضع لاختبارات حتى تتم الموافقة له على تدريس مادة التاريخ، وذلك لإدراكهم أهمية هذه الوظيفة وخطورة التاريخ وأهميته، فالتاريخ في الفكر الصهيوني من ركائز الدولة، فهم يعلمون أن صناعة الصهيوني تبدأ من التاريخ.[9] ويعلمون مدى سلطة التاريخ على السياسة، ولذلك قاموا بصرف ملايين الدولارات من أجل تزييف واختلاق تاريخ لهم في الأرض المقدسة والمنطقة العربية.

دور التاريخ في السياسة الإسرائيلية

لقد بني المنطق الأساسي للاستعمار الصهيوني في الأرض المقدسة على ضرورة محو تاريخ فلسطين، بل وسرقة هذا التاريخ وتحويله إلى سردية تاريخية يهودية، فمن أهم الأسس التي بني عليها الكيان الصهيوني فكرة أن اليهودية قومية، ونحن هنا لسنا بصدد إثبات بطلان هذا الادعاء، ولكن سنتناول الطريقة التي اتبعها الاحتلال الصهيوني للترويج لفكرته وإقناع اليهود وغيرهم بها، ففي الأرض المقدسة بدأت المؤامرة بشكل مقلوب، فقد حددت الدول الغربية الاستعمارية هدفها في زرع دولة دخيلة في جسد الأمة العربية والإسلامية، وتوافق هذا الهدف مع ميل قادة اليهود والحركة الصهيونية، تم العقد الاجتماعي الخفي بين الغرب والحركة الصهيونية. استناداً إلى هذا العقد الخفي بدأت الحركة الصهيونية في إجراء أكبر عملية تزوير في التاريخ، عن طريق خلق تاريخ لهذه الدولة الدخيلة بتحريف التاريخ وعلم الآثار، وتحويل النصوص التوراتية إلى أحداث تاريخية استخدمت في إثبات الحق اليهودي في الأرض المقدسة، فلم يكن هناك حق أصيل لليهود في الأرض المقدسة حتى يطالبوا باستعادته، وإنما كانت الأمور معكوسة، حيث اختلق الحق اليهودي في الأرض المقدسة، ثم بدأ العمل على فبركة تاريخ لوجوده، وإنكار الوجود الفلسطيني على هذه الأرض.[10]

إن الحركة الصهيونية التي نشأت في القرن التاسع عشر مع صعود حركات القوميات الأوروبية، كانت تدعي باستمرار أن رسالتها هي "رسالة تاريخية" مفادها العودة إلى أرض خالية، وصحار قاحلة، ووصفوا هذه الأرض بأنها تنتظر وصول التكنولوجيا الغربية حتى تصبح قابلة للسكن. وتم تصوير الحركة الصهيونية بأنها جزء لا يتجزأ من العالم المتحضر.[11]

بذلت الحركة الصهيونية كل الغالي والنفيس في صنع تاريخها وطمس تاريخ الأرض المقدسة، فقد جرى إنفاق مليارات الدولارات من أجل تحقيق ذلك الهدف. فاستخدمت الكثير من أساليب الدعاية، ومجموعات كبيرة من الكتاب والباحثين والمؤرخين ومراكز الأبحاث حول العالم، وبذلك استطاعت الصهيونية السيطرة على إدارة البحث العلمي الأوروبي والأمريكي، مما ضمن لها التحكم القوي في الماضي. وقد عبر عن ذلك إدوارد سعيد بقوله: "إن توظيف الطاقات الهائلة، العقلية والمادية، للبحث عن إسرائيل القديمة لا يقابله أي بحث مماثل عن التاريخ الفلسطيني للفترة نفسها، ولأي من الفترات اللاحقة. وهكذا تضافرت الدوافع الدينية والسياسية مع بحث الغرب وإسرائيل على إنكار حق الشعب الفلسطيني في أي ممثلاً في التاريخ.[12]

قبل بدأ الحديث عن دور الدراسات الإسرائيلية في إنشاء الدولة الصهيونية الحديثة، لا بد من التطرق إلى الظروف التي خلقت هذه الموجة من الدراسات. فمما لا شك فيه أن رؤيتنا للماضي لها علاقة مباشرة بالسياسة الحالية، كما أن لها تداعيات مباشرة في العالم الحديث، وذلك لأن البناء الفكري والذهني الذي يتركه الماضي غالباً ما يكون خطابا خفيا يسهم في تشكيل الهوية (الشخصية أو الاجتماعية أو السياسية)، وفي الوقت نفسه يتم من خلاله إنكار الهويات المنافسة وسيتضح هذا الأمر أكثر عند الحديث عن الادعاء بوجود إسرائيل القديمة، ومن خلال ذلك يتضح لنا أن كتابة التاريخ هي عمل سياسي، وأن الآراء والايديولوجيات الفكرية والسياسية هي التي تحدد خطة البحث، وبطبيعة الحال تؤثر بشكل قوي على نتائج أبحاث المؤرخين، خصوصا إذا كانوا يعملون تحت مؤسسة أيدلوجية.

أورد أيتلام اقتباسا عن ادوارد سعيد مفاده: "أن المهمة التي تواجه المثقف المفكر هي إذن ليست قبول سياسة الهوية كما هي، بل إيضاح كيف تنشأ هذه التصورات، ولأي غرض، وممن، وما هي مكوناتها".[13]

وهذا يقودنا إلى الحديث عن العلاقة بين علم التاريخ والسياسة في القرن التاسع عشر، القرن الذي شهد ظهور الدول القومية في أوروبا، التي اتخذت من شعار "استملاك الماضي هو جزء من سياسة الحاضر" خطة لترسيم معالم السياسة الاستعمارية الجديدة، فقد بدأت المؤامرة الدولية على المنطقة بشكل عام والأرض المقدسة بشكل خاص مع حملة نابليون بونابرت على مصر، واتبعتها الدول الاستعمارية بحملات للبحث عن الكنوز الأثرية والاهتمام بالدراسات التاريخية في المنطقة، وذلك لاستخدامها في تحقيق مصالحها في الهيمنة السياسية وإضفاء الشرعية على طموحاتها الاستعمارية.[14]

إن مما يصيب الأمة في مقتل ويدخلها في حالة غيبوبة هي تقبلها لمنهج المستعمر في تسميات ومصطلحات وثقافات، فالشعوب قد تقاوم مستعمريها إلا أنها تبقى من حيث لا تدرك أسيرة للمفاهيم

والمناهج الاستعمارية. والدليل على ذلك تقليد المستعمر في منهجية التقسيمات الزمنية للتاريخ، فنرى أن التقسيمات الزمنية لتاريخنا عندما كتبها مؤرخونا لم تنبع من ثقافتنا والتطور الحضاري لمنطقتنا ولكنها فرضت علينا من قبل الدول الاستعمارية حتى أصبحت بالنسبة لنا عبارة عن مسلمات. فتقسيم التاريخ إلى تاريخ قديم، وتاريخ القرون الوسطى، والتاريخ الحديث، والتاريخ المعاصر بناء على أحداث تشكل نقاط فارقة في التاريخ الغربي، وهذا يمثل شكل من أشكال الاستعمار الفكري والذهني الذي يؤدي إلى حدوث اضطراب في تشكل الهوية، فمن خلال هذه السياسة يحاول المستعمر إقناع الشعوب المستعمرة بأن دراسة تاريخهم لا يمكن أن يتم إلا من خلال الحضارة الغربية، فهي التي تمثل التطور السياسي للحضارة البشرية أما ما دونها من شعوب لا تمثل أكثر من كونها نظاما اجتماعيا وليس سياسياً. ولذلك نجد الأبحاث العلمية في البلدان العربية، وإن كانت تخلصت من الاستعمار، إلا أنها لم تستطع حتى الآن التحرر من وطأة المناهج والمفاهيم للمستعمر.

سيطرت فكرة الدول القومية الحديثة في الحضارة الغربية على الدراسات التاريخية، وأسقطت على الماضي فكرة الدولة القومية، في محاولة لفهم ماضيها واكتشاف جذورها. وبما أن الصهيونية خرجت من رحم الحضارة الغربية، فكان من الطبيعي أن تتبع نفس النهج في التعامل مع قضية الأرض المقدسة، فحركة التأريخ الإسرائيلي الحديث بذلت الجهد والمال الهائلين في بحثها عن جذور قوميتها وتاريخها القديم، واتخذت من المنهجية الأوروبية للبحث العلمي طريقة لها، وكرست فرضياتها واهتماماتها. لذلك نجد أن الأبحاث والدراسات العلمية حول تاريخ إسرائيل قد تشكلت في سياق تكوين وتعزيز سلطة الدولة القومية الأوروبية نفسها، فقد استطاعت الحركة الصهيونية تأسيس دولة في المشرق، وبهذا تكون قد ساعدت على إبراز فكرة الاستمرارية الحضارية الفكرية.[15]

بعد هذا التطواف لعرض الظروف التي مهدت لنشوء الدراسات التاريخية الصهيونية، ينبغي لنا أن نشمر عن ساعد الجد للخوض في الكشف عن طبيعة معركة الصهاينة في صنع شيئا من خيالهم وحشدت ما تمتلك من قوة في هذه المعركة واستعانت بقوة من يرعونها في أوروبا واستخدمت كل تلك القوة لإثبات المعدوم في الماضي حتى يكون بعد تثبيته دليلا على تبرير الحاضر، أتحدث هنا عن دور الدراسات التي عملت على تثبيت أسس الاحتلال الإسرائيلي على الأرض المقدسة، إن الفكرة الجوهرية التي قامت عليها الدولة الصهيونية هي أحقيتها في امتلاك الأرض على أساس الأسبقية التاريخية لهم، والادعاء بأن هناك أمة كانت موجودة على الأرض ذاتها، فأصبح لزاماً على الصهيونية العمل على إثبات وجود تلك الأمة على هذه الأرض، وكانت القومية هي الوسيلة الأكثر فعالية لإثبات الحق في الأرض وهنا يأتي دور

الدراسات التاريخية ألا وهو العمل على تثبيت الهوية اليهودية، وإنكار الهوية الفلسطينية إذ لا يمكن اجتماع الهويتان في الزمان والمكان نفسه.[16]

لقد حدد الصراع الحالي –بين دولة الاحتلال "إسرائيل" والفلسطينيين الواقعين تحت الاحتلال– خطة سير الدراسات التاريخية اليهودية، فأصل الصراع بين الاحتلال الإسرائيلي وبين الفلسطيني هو صراع على الأرض والهوية الوطنية والأحقية التاريخية. فكانت مهمة خطاب الدراسات اليهودية هي تجريد الفلسطينيين من ماضيهم، فالماضي هو المجال الذي يمكن للدراسات أن تلعب فيه دورا، وذلك من خلال بحث هذه الدراسات عن إسرائيل في التاريخ، ومن ثم العمل على حياكة ادعاءات للربط بين الماضي والحاضر، وبما أن الفلسطينيين ينافسون اليهود على الأرض والزمان ذاته فكان لا بد من اسكات وتجاهل التاريخ الفلسطيني. لأن الإحساس بالماضي مرتبط بالهوية السياسية والاجتماعية في الحاضر. وهنا يجب أن نعلم أن فهم الاهتمامات الدراسات التاريخية اليهودية، وخاصة ما يتعلق بطبيعة وهدف الأبحاث التاريخية يحتاج إلى معرفة وإدراك السياق السياسي والثقافي لتلك الدراسات. كما أنه يجب أن يفهم في موضعه ضمن خطاب الغرب وثقافة الغرب في فكرة القومية.

عندما جاءت الدراسات التاريخية اليهودية على تخيل الدولة اليهودية في الماضي استسقت ذلك الخيال من الواقع المعاصر بما يوافق الواقع السياسي، وتم إسقاط هذه التخيلات على الماضي وتثبيته بكل ما تمتلك من قوة ثم بعد ذلك يتم استخدام روايات الماضي، والتي هي في الأساس مجرد تخيلات من أجل تبرير الحاضر. ولتقريب الصورة سنذكر مثالاً أورده وايتلام: عمليا اكتسب بناء إسرائيل القديمة طابع الأحداث الجارية في فلسطين ففي الوقت الذي صيغت فيه تلك الأحداث (أي العقد الثالث من القرن العشرين) كان المجتمع الفلسطيني في هذا العقد من الزمن مكون من عشائر لم تتوحد بعد في كيان متماسك، ولذلك عندما أتت الدراسات اليهودية الى النصوص التوراة تم تفسيرها حسب الأيدلوجية السابقة للدراسات فلووا أعناق نصوص التوراة حسب أيدولوجياتهم واستخرجت تخيلات توراتية تنظر إلى القبائل الكنعانية والتي كانت أمة من الأمم فنظرت إليهم بأنهم مجرد تجمعات متبعثرة غير متماسكة تشبيها لهم بالواقع الموجود للفلسطينيين. فعملية التأريخ للدراسات اليهودية تنطلق من رؤية الحاضر وتستوحي أهدافه السياسية والاجتماعية، فتصنع لها ماضيا مشابها للواقع ثم تسقطه على الحاضر لإضفاء الشرعية عليه وتبريره. وقد أدى ذلك إلى تشييد ماض خيالي غلب على خطاب الدراسات التاريخية اليهودية، وهيمن على التاريخ الفلسطيني بل وأنكر وجوده من الأساس.[17]

وإليك مثالا آخر فقد استخدمت الدراسات شعارا كان سائداً بين اليهود في القرن التاسع عشر "أرض بلا شعب لشعب بلا ارض". فتعاملت الدراسات الإسرائيلية مع هذا الشعار بأنه يعكس واقعا

حقيقيا لذلك قامت بتصدير فكرة أن فلسطين بدون سكان، أو أنهم سكان مؤقتين، سريعي الزوال، وأن هذه الأرض (فلسطين) تنتظر قدوم ذلك الشعب الذي لا يملك الأرض. فبهذه الطريقة عملت الدراسات على عدم وجود الشعب الفلسطيني على الأرض المقدسة في الماضي، وأنه حتى لو كان موجوداً فإنه لا يمكن أن يكونوا فلسطينيين أو كنعانيين، فهم مجرد تجمعات مبعثرة غير متماسكة ولذلك لا يمكن تحديد هويتهم.

وهنا سؤالا يضع نفسه وهو بما أن فلسطين موجودة في الواقع فعلاً، فما هو تأثير الدراسات التاريخية اليهودية على مستوى القضية الفلسطينية؟ والجواب هو أن الدراسات لا مجال لها في إنكار الواقع وإنما مجال عملها في الماضي، ولذلك عملت الدراسات التاريخية على جعل فلسطين اسماً فقط، لا حقيقة لها فيما يتعلق بتاريخها أو باعتبار أن سكانها فلسطينيين. فالسكان الذين وجدوا في الماضي لم يكن لهم أي اسم، وبذلك يكونوا قد أضفوا الشرعية على الدولتين القديمة والحديثة وأنكروا الوجود التاريخي الفلسطيني والذي بدوره ألغى الأحقية لهم في الواقع المعاش. فإذا لم يكن هناك فلسطينيون في العصور القديمة فلا يمكن أن يكون هناك تاريخ فلسطيني وبالتالي فلا أحقية لهم في الواقع.[18]

ولذلك اعتبرت الصهيونية "توفير مناخ ملائم للعمل في مجال التاريخ والتنقيب عن الأثار بالغ الأهمية، وأنه لا يقل أهمية عن توفير المناخ السياسي والإداري والاقتصادي لإنشاء الوطن القومي اليهودي. ونجد الإشارة في وعد بلفور ذاته إلى الرابط التاريخي بين اليهود المشتتين في العالم وبين أرض أبآئهم، وقد كان أكبر نصر في مطلع القرن العشرين للحركة الصهيونية ولزعيمها حاييم وايزمن، الذي أصر على أن يتضمن وعد بلفور مثل هذه الإشارة، إيماناً منه بأن التركيز على الجانب التاريخي هو شرط أساسي لنجاح المشروع الصهيوني، ولضمان عودة اليهود إلى أرض أجدادهم، فكثيراً ما كان وايزمن يردد: نحن لسنا بقادمين ولكننا عائدون".[19] فبعد إعلان الوعد بسنتين ورد في المذكرة التي كتبها اللورد بلفور العبارات التالية: "إن القوى الأربع العظمى ملتزمة بالصهيونية، وسواء أكانت الصهيونية على خطأ أم على صواب، أو كانت شيئاً جيد اً أو سيئاً، فإنها متأصلة بعمق في تراث من الماضي البعيد وفي حاجات الحاضر وآمال المستقبل، وهي أهم بكثير من رغبات وتحيزات الـ700 ألف عربي الذين يقطنون الآن تلك الأرض القديمة".[20] ولذلك شكلت مرحلة الانتداب البريطاني للأرض المقدسة بما وفره من دعم وعون في المجال البحثي وأعمال التنقيب الأثري فترةً مهمةً للغاية في المشروع الصهيوني، وهي الفترة التي ابتدأت مع وصول أول مندوب سام إلى الأرض المقدسة، فكان صك الانتداب ينص في المادة الثانية على أنه: "سوف تهيئ حكومة الانتداب الظروف السياسية والإدارية والاقتصادية التي تؤدي إلى إنشاء وطن قومي لليهود، وكذلك تطوير مؤسسات الحكم الذاتي وحماية الحقوق المدنية والدينية لجميع

سكان فلسطين بغض النظر عن عرقهم أو دينهم". أما المادة 21 من الصك ذاته فتنص على أنه ستؤمن حكومة الانتداب خلال اثني عشر شهرا من صدوره إصدار قانون الآثار.[21]

وهذه صورة أخرى من صور حشد القوة في سبيل دعم الصهيونية وذلك في إعلان الاستقلال لدولة إسرائيل الذي صدر في 14 مايو 1948، إلى إعادة إنشاء الدولة اليهودية،[22] فقد جاء النص كالآتي: "أرض إسرائيل هي مهد الشعب اليهودي، هنا تكونت شخصيته الروحية والدينية والسياسية، وهنا أقام دولة للمرة الأولى، وخلق قيما حضارية ذات مغزى قومي وإنساني جامع، وفيها أعطى للعالم كتاب الكتب الخالد. بعد أن نفي عنوة من بلاده حافظ الشعب على إيمانه بها طيلة مدة شتاته، و لم يكف عن الصلاة أو يفقد الأمل بعودته إليها واستعادة حريته السياسية فيها. سعى اليهود جيلا تلو جيل مدفوعين بهذه العلاقة التاريخية والتقليدية إلى إعادة ترسيخ أقدامهم في وطنهم القديم، وعادت جماهير منهم خلال عقود السنوات الأخيرة. جاؤوا إليها روادا ومدافعين، فجعلوا الصحاري تتفتح وأحيوا اللغة العبرية وبنوا المدن والقرى، وأوجدوا مجتمعًا ناميا يسيطر على اقتصاده الخاص وثقافته. مجتمعاً يحب السلام لكنه يعرف كيف يدافع عن نفسه، وقد جلب نعمة التقدم إلى جميع سكان البلاد وهو يطمح إلى تأسيس أمة مستقلة".[23]

هذا وقد أبدى قادة الصهيونية اهتماما بالتاريخ خصوصا بعد عام 1948 فهذه جولدا مائير رئيسة الوزراء الإسرائيلية السابقة تقول: "لقد وجدت هذه البلاد باعتبارها تنفيذاً لوعد صادر عن الله ذاته، ومن المثير للضحك أن يطلب منه بيانات على شرعية ذلك". وعبر عن ذلك أيضاً رئيس الوزراء الإسرائيلي السابق مناحيم بيجن قائلاً: إن هذه الأرض قد وعدنا بها، ولنا الحق عليها''. أما وزير الدفاع الإسرائيلي موشيه دايان فيعبر بقوله: ''بما أننا نملك التوراة، ونعتبر أنفسنا شعب التوراة، لا بد أن نملك كذلك الأرض التوراتية، وأرض القضاة والحاخاميين والقدس والهبريون وأريحا، ومناطق أخرى أيضا".[24] فهنا يمكن للملاحظ أن يرى أن هذه التصريحات من القادة الإسرائيليين والغربيين سواء أكانوا من اليمين أو من اليسار، ناطقين باسم الجيش أو الحاخامية، قد اعتمدوا على التاريخ المختلق من قبل بعض المؤرخين الصهاينة والغرب، في المطالبة بالأرض المقدسة. فإسرائيل تتخذ من شعارات توراتية مثل شعار "الشعب المختار" و"إسرائيل الكبرى"، أيديولوجيا سياسية، وذلك بعد احيائها من قبل المؤرخون الصهاينة، فقد أسقطوا هذه الخرافات على الماضي لتصبح حقائق تاريخية يستخدمها السياسي في خطاباته ليثبت أحقيته في الأرض وهذا يعني أن هناك تكامل بين المؤرخ والسياسي في مناصرة قضيتهم المشتركة.

لم تقتصر مهمة المؤرخ الصهيوني على تزوير واختلاق تاريخ إسرائيلي للصهاينة على الأرض المقدسة فحسب، بل تعدى ذلك بأن توجّب على القوميات الغربية، أن تخترع وعياً قومياً ورموزاً

قومية، مثل العلم والنشيد والطوابع وغيرها، بل واختراع الشعب الإسرائيلي نفسه، ومن ثم أقنعوه بأنه شعب يهودي ممتد من أصوله العريقة الضاربة في جذور التاريخ.

واستكمالاً لدور التاريخ في توطيد أسس الدولة الإسرائيلية على الأرض المقدسة، كان لزاماً على المؤرخ الصهيوني وضع اللمسات الأخيرة للسيناريوهات فانتبه للجوانب الأخرى التي من شأنها زيادة الشعور بالهوية، فلا يمكن تخيل مجتمعا أو شعبا بدون تكامل ثقافي لذلك الشعب فلا بد أن يكون هناك أسماء أماكن ونمط معين في العيش وطوابع بريدية وأختام وملابس ومأكولات تدل على عمق ذلك الشعب وارتباطه بالأرض، ولذلك بذل المؤرخون الصهاينة جهودا مضنية في سبيل إنكار التاريخ الفلسطيني بكافة أقسامه، فنلاحظ أن غالبية الدراسات الغربية والصهيونية ترفض استخدام اسم فلسطين والفلسطينيين والكنعانيين- فإن تسمية الأرض والأماكن هي جزء من الصراع الإسرائيلي الفلسطيني، فمن خلاله تتحدد العلاقة بين الشعب والأرض أو يتم إنكارها- فرفض المؤرخون الصهاينة استخدام اسم فلسطين، بحجة أن هذا الاسم لم يستخدم في التاريخ القديم إلا فترات قصيرة وأطلق على أماكن محددة، وأورد وايتلام في كتابه ما ذكره المؤرخ الصهيوني دوثان حول الموضوع "وهكذا، لمدة سبعمائة عام، لم يكن اسم فلسطين يستعمل بالكاد. وفي القرن التاسع عشر فقط، بعد يقظة المصالح الأوروبية الدينية والتاريخية والسياسية في المنطقة، ظهر اسم فلسطين من جديد. بإمكاننا استنتاج أن هذا الاستعمال الزمني المتأخر والمتناقص للفظ فلسطين، يبدو أنه لم يتم قبوله من أي فئة قومية محلية. ولذلك فإن اللفظ لا يكاد يكون له معنى بالنسبة للتاريخ الأثري لهذا البلد".[25] وللمتأمل هنا أن يرى إنكار اسم فلسطين بالرغم من وروده في المصادر الآشورية والهلنستية والرومانية، هو إنكار للتاريخ الفلسطيني. وكان اختيار اسم إسرائيل للتعبير عن الدولة القومية الحديثة ويعبر أيضاً عن الأمة القديمة التي سكنت هذه الأرض، فربطت الدراسات الصهيونية بين الأرض والأمة، حيث أن الأرض تملكها الأمة وتتوحد معها. وصفت الدراسات التاريخية بأن الحضارة الكنعانية بأنها ليست إلا تجمع فضفاض لا يحتوي على أي مدنية، مقابل دولة إسرائيل القديمة التي تمثل التطور السياسي الممتدة من الدولة القومية الأوروبية، وبهذه الطريقة تكون الدراسات الصهيونية قد ألغت التاريخ الفلسطيني وأوجدت مكانه التاريخ الإسرائيلي.[26]

وقبل الخوض في نقاط التشابه بين الصهيونية والحملات الصليبية سأفرد الحديث لمسألة المفاهيم والتي تحتل أهمية كبيرة في التاريخ والسياسة وتشكيل الهوية، فقد تنبهت الدراسات الإسرائيلية لهذه المسألة المهمة واستغلتها في صراعها مع الوجود الفلسطيني، و لم يقتصر هذا الاهتمام على اسم الدولة بل تجاوز ذلك إلى أسماء المدن والقرى والشوارع، فحرصت على أن تعبر هذه الأسماء عن الوجود الإسرائيلي، لما لذلك من أهمية في تعزيز الهوية الإسرائيلية، فتارة تؤخذ هذه الأسماء من التوراة وأخرى من الخرافات

اليهودية، وفي أحيان أخرى يلجؤون إلى سرقة الأسماء الكنعانية نفسها ثم تقوم بتسمية الأماكن بها واستبدال الأسماء العربية الفلسطينية بأسماء إسرائيلية وهذا يحدث في ظل غياب دور المؤرخ العربي أو الفلسطيني، ومع مرور الزمن على اطلاق هذه الأسماء ينسي الفلسطينيون أنفسهم أسماء الأماكن الأصلية ويبدؤون بتداول الأسماء الإسرائيلية، وهذا في حقيقته نوع من أنواع الاحتلال الفكري. كما قاموا بذات الأمر في تسمية الشوارع وغيرها من المواقع، وتعدى ذلك الأمر بالادعاء بأن مأكولات وملبوسات السكان الأصليين وثقافتهم تخص الشعب الإسرائيلي، وحشدوا لذلك دعما من خلال إصدار عددا من المقالات واستنطاق بعض الطهاة في العالم في سياق إثبات أن الحمص والفلافل والكسكس مأكولات إسرائيلية، وهذا ينطبق أيضاً على اللباس والأغاني الشعبية وغيرها الكثير. ويوجد هنا مشهد آخر من مشاهد طمس التاريخ الفلسطيني وهو مشهد سرقة الآثار العينية، فكثيراً ما سمعنا عن سرقة بناء أثري أو معصرة زيت قديمة أو فوهة بئر قديمة، ونقلها إلى مكان آخر بصفتها آثاراً إسرائيلية ليأتي السائح ويدون في مذكراته على أنها أماكن أثرية إسرائيلية[27]. وعلى أية حال فإن اليهود يبذلون جهدًا كبيرًا من أجل إيجاد ذاتية وهوية لهم وتراث أو ثقافة واحدة تجمعهم، وهم في هذا السبيل يسرقون التراث العربي وينسبونه لأنفسهم وبين يدي العالم الآن آلاف الدراسات فيما يسمى بالفلكلور اليهودي والميثولوجيا اليهودية والعادات والتقاليد والاحتفالات اليهودية وغيرها مما ينسبونه إلى إسرائيل والشعب الإسرائيلي. فالمشروع الصهيوني لا يقتصر على احتلال أرض فلسطين وطرد أهلها منها وتشويه حاضرها وتغيير مستقبلها فقط، إنما يغوص في الماضي ويستحضر من أعماقه السحيقة روايات وحجج وبراهين يزور بها تاريخ الأرض بكل ما تحتويه من مقدسات وآثار فلسطينية، ليعزز بذلك أحقيته المكذوبة في أرض فلسطين وأماكنها المقدسة. يقابل هذا الاهتمام الصهيوني بالتاريخ، إهمالاً فلسطينياً وعربياً في الصراع العربي الإسرائيلي. وهذا ما فتح الباب على مصراعيه للمؤرخين الصهاينة والغرب الذين عملوا على إسكات التاريخ الفلسطيني، واستبداله بالتاريخ الإسرائيلي.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل وصل الأمر إلى التدخل للعبث بالقواميس فمثلا كلمة فلسطيني في الحضارة الغربية تدل على الشخص الفج المعادي للثقافة، وهو الإنسان محدود الأفق والبعيد عن الثقافة كما يعرفه قاموس أكسفورد بطبعته القديمة. وهذا التفسير يثبت لنا أن الحركة الصهيونية تمثل المشروع الكولونيالي الغربي. فما هو قائم بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية أشبه ما يكون بعقد صامت اجتمع على الغاء الهوية والثقافة الفلسطينية.[28]

إلى هنا كان كل ما سبق هو اهتمام الصهاينة بالتاريخ، وذلك من خلال توصيف للجهد والسعي المبذول من قبلهم مع ما يقابله من غياب لدور المؤرخ العربي، إلا أن هناك اهتماما آخر بالتاريخ لكنه

ليس من أجل السعي في اثبات الهوية الصهيونية وطمس التاريخ الفلسطيني، وإنما هو اهتمامهم بالتشابه الصارخ بين الحملات الصليبية وبين الكيان الصهيوني، ولأن التشابه كان ناصعا مثل نصوع الشمس في كبد السماء، فقد خاف الصهاينة من ملاقاتهم لنفس المصير الذي لقته الحملات الصليبية فأبدوا اهتماما بالغ النظير بها ونحن في السطور القادمة سنوضح أهم ما يخص هذا النوع من الاهتمام من قبل الصهاينة.

التشابه بين الحملات الصليبية والحركة الصهيونية

في البداية يجب الانطلاق من قاعدة تم التطرق إليها سابقاً، وهي أن تاريخ اليهود والحركة الصهيونية جزء لا يتجزأ من تاريخ الحضارة الغربية، ولا يمكن فهمه خارج أحداث التاريخ الغربي،[29] وإلا فكيف يمكننا تفسير العديد من حوادث التاريخ المتسلسلة والمتكررة في علاقة الغرب بالكيان الصهيوني، فمثلا تمثال السياسي الإنجليزي "سيكس" الذي عقد مع نظيره الفرنسي "بيكو" معاهدة عام 1916 (الهادفة الى تفتيت الشرق إلى دويلات صغيرة، ليصبح لقمة سائغة للكيان الصهيوني) يحتوي على عبارة "ابتهجي يا قدس". وكذلك عندما دخل الجنرال الإنجليزي "اللنبي" مدينة القدس قال عبارته الشهيرة: "اليوم انتهت الحروب الصليبية"، وفي نفس اليوم نشرت مجلة "بنش" الإنجليزية رسما كاريكاتوريا لريتشارد "قلب الأسد" وذلك تحت عنوان " آخر حملة صليبية". أما الجنرال الفرنسي العلماني "جورو" فيذهب عند دخوله دمشق سنة 1920 إلى قبر صلاح الدين الأيوبي ليركله بحذائه ويقول: "ها نحن قد عدنا يا صلاح الدين".[30]

كل هذه النماذج وغيرها الكثير التي لا يسع المقام لذكرها تكاد أن تصرخ قائلة إن المشروع الصهيوني عضو حي في جسد الحضارة الغربية، والصراع القائم بين العالم الإسلامي وهذا المشروع لهو صراع تاريخي عقدي، وسببه الأول يمكن إيراده بما عبر عنه المفكر القومي العربي ميشيل عفلق "هو الدور الحضاري الذي جاء به الإسلام"، وكما عبر عنه في موضع آخر: "فالحروب الصليبية لم تنته بعد، وصيغتها الأخيرة هي الكيان الصهيوني".[31]

بهذا يمكن القول بأن إنشاء الدولة الصهيونية كان استكمالاً لمشروع الحملات الصليبية في الاستيلاء على الأرض المقدسة بكل اطمئنان، وقد أشار إلى ذلك بشكل صريح مؤسس صندوق استكشاف فلسطين سي آر كوندر في كتابه تاريخ المملكة اللاتينية في القدس بقوله: "أن الإمبريالية الغربية نجحت فيما أخفقت فيه الحملات الصليبية".[32] وبهذا يتضح أن الهدف من الإمبريالية الغربية والحملات الصليبية هو هدف واحد ألا وهو استعادة الأرض المقدسة، وما أخفقت الحروب فيه فقد نجحت به السياسة للإمبريالية الغربية، وهو هنا يؤكد لنا بأن الدولة الصهيونية هي الحلقة الأخيرة من سلسلة الحملات الصليبية.

تعد الحملات الصليبية من أهم أحداث التاريخ الإسلامي، فكانت مواجهة عسكرية بين العالم الإسلامي والعالم الغربي خلال العصور الوسطى، لكن هذه الحروب اكتسبت أهمية من نوع آخر عند ظهور الكيان الصهيوني.[33] إذ أبدى اليهود اهتماما بالغا بها، وذلك لما سكن في العقل الصهيوني من التشابه بين المشروعين، فنجد اليهود يستخدمون التاريخ بكافة مناهجه لدراستها[34] حتى أصبحت الجامعة العبرية من أهم مراكز الأبحاث بخصوصها.[35] ويبدو أن هذا الاهتمام نابع من إدراكهم لحقيقة الوظيفة الثقافية والاجتماعية للتاريخ كعلم، فقد أصبح هذا الاهتمام جزءاً من الأيديولوجيا الصهيونية في التعامل مع الأحداث التاريخية. والذي يدفعهم لذلك وتناولها دراسة وتحليلاً وتفسيراً، هو كما يسميه الدكتور شاكر مصطفى عقدة الصليبيات التي تلاحقهم، وتؤرق استقرار المشروع الصهيوني كله، فتوغلوا وراءها دراسة وبحثاً، على أمل ألا يقعوا في نفس مصير الحملات الصليبية، وأن يأمنوا من حطين أخرى. في محاولة لمعرفة الظروف التي أنتجت نور الدين وصلاح الدين، وكيف انتهت الحملات الصليبية، بعد الانتصارات التي حققتها على المسلمين. وكيف تحول المسلمون المشتتين إلى أمة قوية متماسكة، استطاعت أن تهزم الحملات الصليبية فجأة ومرة واحدة. وهنا يورد الدكتور شاكر مصطفى مقولة لموشيه دايان تصور لنا مشهدا من تخوف الصهاينة من عودة حطين أخرى فقد قال بعد هزيمة الجيوش العربية في حرب 1967 "بأن جيوشه انساحت خلال القوى العربية كالسكين في الزبدة، فهل تتحول الزبدة قنبلة تذهب بالسكين وصاحب السكين؟".[36]

وهنا يؤكد الفكرة شاكر مصطفى في مقالة له تحت عنوان: "من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس" فيذكر قصة حصلت معه في عام 1969، في المكتبة الشرقية في بيروت، عندما وقع له بالصدفة كتاب اسمه الإسلام والصليبيات، لمؤلف اسمه عمانويل سفيان، ويذكر بأنه تفاجأ من المعلومات التي وجدها في داخل الكتاب، مما دفعه ليقول: "لو دفعت ثمنها الآلاف لكان ذلك رخيصا رخيصا"، وكان سبب دهشته أولا: لأنه اكتشف أن الجماعات اليهودية التي تحتل فلسطين تدرك تشابه غزوها واحتلالها للبلاد مع الغزو والاحتلال الصليبي، وأن هذا الإدراك دفعها إلى معالجة الموضوع بشكل علمي كتجربة فريدة. ثانياً: أنها تدرس وتحلل تاريخ المشرق والحملات الصليبية خاصة لتفادي نهاية كنهاية الحملات الصليبية. أما الأمر الثالث: وهو الأهم أن ثمة فرق عمل كاملة في الجامعة العبرية، تتخصص في هذا الموضوع، على رأسها جوزيف براور صاحب كتاب تاريخ المملكة اللاتينية في القدس. وأن هذه الفرق تستعين بالعلماء المتصهينين في الجامعات الغربية لهذا الغرض، وأن لهم مراكز بحث ومستشارون في معظم الجامعات الغربية مثل: آشتور شتراوس، وبرونشفيك، وكيستر، وآيالون، وغويتاين.[37]

إن اهتمام الباحثين الصهاينة بدراسة تاريخ المملكة الصليبية لم يكن الهدف منه المعرفة بالتاريخ، بل كان الهدف منه هو إدراك التاريخ، فلم تهمهم الصليبيات بوصفها صليبيات، وإنما تهمهم بوصفها اسقاطاً على المستقبل، فزاوية اهتمامهم محصورة في معرفة كيف تم طرد الصليبيين من الأرض المقدسة، وكيف استطاع المسلمون تجميع أنفسهم من جديد؟ وكيف ظهر نور الدين ليهيئ الظروف لمجيئ صلاح الدين؟ ويضيف مصطفى قائلاً: "ولاحقت نصوص التراث التي تتداولها الحركة الصهيونية بالدارسة، فإذا التراث الذي نتصور أنه نائم في دمائنا وفي أ دراجنا هو لديهم كيان كامل على المشرحة، يستنطقونه ويحكمون علينا من خلاله"،[38] فاستنطقوا ذلك التراث العظيم لسلفنا الكريم، والذي هو بالنسبة إلينا أشبه بجسد بلا روح أودعناه في خزائن المكتبات، بينما هو عند غيرنا حي يرزق يستنطقونه عندما يشاءون، ليصلوا فيه إلى العديد من الفرضيات والنتائج، فدراستهم للتاريخ الصليبي قائمة على مبدأ أن جذور الحاضر موجودة في الماضي، وممدودة إلى المستقبل. فكما يقول الدكتور عبد الفتاح العويسي في مجال الحديث عن المعرفة والإدراك، بأن المعرفة هي التي تدفعك إلى التفسير الذي يقودك بدوره إلى الإدراك الذي يؤدي إلى التغيير وصناعة التاريخ المستقبلي.[39] فكل معرفة تاريخية لا تقود إلى الإدراك تبقى أسيرة الماضي، ولا تعدو كونها سرد لأحداث وقعت في الزمن الغابر، وهذه أزمة من الأزمات التي تعاني منها الأمة في الوقت الحاضر. فالتاريخ ليس مجموعة مصادفات وأحداث عشوائية، وإنما تحكمه قوانين عامة تصنعها الإرادة الإنسانية، وإن الأمة اليوم وهي تعاني في مواجهة المشروع الصهيوني ظروفاً متشابهة مع ما عايشته أيام الحملات الصليبية، ليتوجب علينا العمل على إعادة دراسة تاريخنا بهدف استخراج القوانين التي يسير التاريخ وفقها، وذلك لا يتم إلا بدراسة التاريخ بعين المدرك لواقع أمته.[40]

سنحاول الآن تجميع أوجه التشابه بين المشروعين الصليبي والصهيوني في النقاط الآتية:

1. العامل الجغرافي، فالأرض المقدسة هي النقطة المستهدفة في كلا المشروعين الصليبي والصهيوني. وأكد الدكتور المسيري على إدراك الغرب لقضية التشابك الجغرافي والمصيري بين الأرض المقدسة ومصر، فكل من المشروعين أدرك أن السبيل إلى حسم الصراع يكون من خلال ضرب مصر أو تحييدها.
2. لقد كان مصدر المادة البشرية لكلا المشروعين من العالم الغربي، فكما كان مصدر الجيوش التي أسست المملكة المقدسة من أوروبا، فقد كانت طلائع الصهاينة الأوائل من أوروبا كذلك، فمن الملاحظ أن معظم أفراد الهجرات الصهيونية كانوا من يهود أوروبا.
3. لقد اعتمد كل من المشروعين الصليبي والصهيوني على الدول الغربية كمصدر للدعم المادي والعسكري والدبلوماسي. فالقاسم المشترك بينهما هو الأب الأوروبي الداعم، الذي رأى في وجود المشروع الصهيوني قضية كبرى لمصلحته الاستراتيجية في المنطقة. فالمشروع الصهيوني بدون الداعم الغربي يكون مصيره مصير الحركة الصليبية.[41]

4. إن كلا من الحركة الصليبية والصهيونية كان هدف أوروبا منهما حل بعض مشاكل المجتمع الغربي الداخلية، فالقضية اليهودية كانت مشكلة أوروبية داخلية خالصة، وجدت القوى الغربية حلها على أرض خارج أوروبا. والقضية الصليبية كذلك هي مشكلات أوروبية داخلية حلت على الطريقة ذاتها، فقد كانت أوروبا تعاني من التكاثر السكاني قبل الحملات الصليبية مع تدهور الزراعة وانتشار المجاعات والكوارث الطبيعية أدت إلى مشاكل اقتصادية حلت هذه المشاكل على حساب المشرق.[42]
5. ومن نقاط التشابه الأخرى أن المشروعين الصليبي والصهيوني مشروعان استعماريان من نوع الاستيطان الإحلالي وهذا وإن كان واضحا في الحملة الصليبية فهو واضح كذلك عندما نتأمل الشعارات التي روجت لها الحركة الصهيونية مثل شعار" أرض بلا شعب لشعب بلا أرض". فهي هنا تفضي إلى إحلال اليهود في فلسطين وعند تقييم الغزوة الصليبية يمكن الاقتباس من المؤرخ البريطاني برنارد لويس وجه تشابه آخر، وذلك حين قال "فإن الحملات الصليبية ليست بالنسبة لتاريخ الشرق الأدنى إلا محاولة مبكرة قصد بها التوسع الاستعماري. وكان الدافع إلى القيام بها هو الاعتبارات المادية. أما الدين فقد اتخذ وسيلة لتهيئة النفوس لها"[43] وكذلك كان المشروع الصهيوني دافع مادي وذو صبغة دينية.
6. استخدام كل من المشروعين الصليبي والصهيوني العامل الديني من أجل تحقيق أهدافهما، فالصهاينة، وقبلهم الصليبيون، انطلقوا في عملياتهم لاحتلال فلسطين من اعتبار ذلك تنفيذاً لإرادة إلهية. الصليبيون بحجة استعادة الصليب المقدس، والصهاينة بحجة استعادة الهيكل المقدس. وقد استخدم كل من المشروعين ديباجات دينية لاستخدامها في عملية الإعداد والتعبئة العسكرية، كما كان لكل من المشروعين قائدا فكريا ودينيا تمثل بشخص البابا أوربان في الحملات الصليبية، وبشخص ثيودور هرتسل في الحركة الصهيونية. وفي الواقع لم يكن هناك صليب ولا هيكل. كل ما في الأمر أنه كانت هناك أطماع استعمارية للتوسع والاستيطان.[44]
7. كل من المشروعين اعتمد على الترويج للدعاية الكاذبة والخيال والأساطير، بغرض خدمة الأيديولوجيا والسياسة الاستعمارية، فكما استغلت الدعاية الصليبية الجهل الذي كان سائداً في العصور الوسطى للترويج لأكاذيبه الذي أوجدها من خلال تزوير الوثائق وقصص الأحلام المقدسة، فقد استغلت الصهيونية جهل الناس بفلسطين وتاريخها وناسها لكي تصوغ دعايتها في كل ذلك كيفما تشاء، فقد تجاهلت سكان فلسطين بالإلغاء الكامل في البداية، ثم لاحقتهم بالتهم حين ظهروا على سطح الأحداث، فهم في أدبها برابرة، أنذال، مخادعون، والآن إرهابيون. وتستخدم الكذب والمبالغات والتزوير في إقناع العالم بذلك، مستغلين غياب الرواية الفلسطينية العربية.[45]
8. وأخيراً فإن وضع العالم العربي والإسلامي أيام الحملات الصليبية في القرن الحادي عشر، ووضعهما في أواخر القرن التاسع عشر والقرن العشرين كان متشابها إلى حد بعيد. فقد كانا في حالة انقسام

وتجزئة. ففي فترة الحملات الصليبية فالخلافة الفاطمية في مصر كانت في حالة مواجهه مع الخلافة العباسية في العراق، وكان كل من النظامين الفاطمي والعباسي يعانيان من الصراعات الداخلية والمؤامرات. وهما في هذا، يشبهان النظام السياسي العربي والإسلامي المعاصر، فهو يعاني أيضاً من التجزئة والانقسام.[46]

نلاحظ بعد هذا العرض أنه لا يمكن الفصل بين السياسة الصهيونية والتاريخ اليهودي بشأن القضية الفلسطينية، فقد كان وما زال التاريخ هو الوجه الآخر من الصراع الفلسطيني الصهيوني، لذلك لا بد لنا من وضع التاريخ في موضعه الأساسي ليقوم بالدور المنوط به، وذلك باستحداث طرق غير تقليدية في استنطاق التاريخ بهدف ليس نفي الرواية الصهيونية وفهم سياستهم فحسب، بل لاستخراج القوانين والظروف التي أدت لخلق أحداث معينة في التاريخ، ومحاولة فهم هذه القوانين بعقلية الواعي للحاضر، ليتمكن من رسم خطط نهضتنا في المستقبل. فكما درس الصهاينة الحملات الصليبية دراسة فريدة تمكنوا من خلالها تجنب الأخطاء التي وقع فيها الصليبيون، فمن الواجب علينا أيضاً دراستها بعقلية المدرك لمشاكل أمته، ودراسة الظروف التي ساهمت في عودة العزة إلى الأمة ومن ثم تحرير بيت المقدس.

نتائج الدراسة

أعطى الصهاينة التاريخ اهتماماً كبيراً، وبذلوا جهوداً منظمة من أجل تفريغ فلسطين من بعدها التاريخي والحضاري والاجتماعي. على اعتبار أن التاريخ ليس مجرد مجموعة من الأحداث التي وقعت في الماضي، بل يعد عاملا أساسيا في تشكيل الهوية الاجتماعية والثقافية والسياسية للشعوب، وهنا سنورد أهم النتائج التي توصلت إليها الدراسة:

1. أدركت إسرائيل أهمية التاريخ في السياسة، ولذلك عملت على بذل إمكانيات مادية كبيرة في إنشاء مراكز بحث تاريخية تابعة لها، لتعمل على خلق تاريخ لها وطمس للتاريخ الفلسطيني، في ظل تقاعس من قبل المؤرخين العرب والفلسطينيين في الاهتمام بتاريخ الأرض المقدسة، فخلت الدوائر العلمية العربية المتخصصة في تاريخ الأرض المقدسة من أي جهد منهجي منظم من أجل بناء خطاب للتاريخ الفلسطيني يتصدى للخطاب الصهيوني. الأمر الذي سمح لعلماء التاريخ الصهاينة بأن يفرضوا خطابهم المبني على اختلاق تاريخ لإسرائيل وإسكات تاريخ فلسطين.
2. كان اهتمام الصهاينة بدراسة الحملات الصليبية خير دليل على الأهمية التي أولوها للتاريخ، فكانت دراستهم لها تهدف إلى استخراج العبرة والعظة وذلك لتلافي المصير الذي آلت إليه هذه الحملات.
3. أدرك الصهاينة مدى التشابه بين الحملات الصليبية والحركة الصهيونية، وكتبوا عن ذلك في كتاباتهم، ويمكن إجمال أوجه التشابه بين المشروعين، أن كل منهما حركة بنيت على الدين، مسلحة عدوانية

استيطانية غربية المصدر، فلسطينية المستقر، اعتمدت على الدعم الغربي ماليا وعسكريا ودعائيا واجتماعيا، ثم إن كل منهما نشأ في فترة انقسام وشرذمة العالم الإسلامي.[47]

4. استطاعت الصهيونية بواسطة الدعم الغربي والإمكانيات المادية أن تجعل من مملكة عارضة –وجدت قبل ثلاثة آلاف سنة، ولم تستمر لأكثر من 100 سنة، أدت تحولات التاريخ إلى انهيارها مثلها في ذلك مثل جميع الإمبراطوريات والدول الأخرى–مصدراً لاختلاق الروايات التاريخية التي مكنته من إيجاد تاريخ لشعب غير موجودا، وإسكات تاريخ شعب موجود. إن دولة إسرائيل في التاريخ لا تمثل أكثر من خيط في الثوب الفلسطيني، ولكن الصهاينة بواسطة مراكزها استطاعت انتاج تاريخاً في محاولة أن تجعل الخيط ثوباً والثوب خيطاً.

الهوامش

1 مؤنس، حسين، **التاريخ والمؤرخون دراسة في علم التاريخ**، القاهرة، دار الرشاد، ط 2، 2001، ص 14.

2 الوغليسي، محمد، **أهمية التاريخ عند المسلمين والصهاينة**، مجلة البيان، ع336، شعبان 2015، طه، عبد الواحد، أصول البحث التاريخي، بيروت، دار المدار الإسلامي 2004، ص28–34.

3 Özlemiş, Mustafa, Tarihin önemi, http://www.mustafaoselmis.com.tr/tarihin-onemi

4 **القرآن الكريم**، سورة هود، آية 21.

5 **المرجع السابق**، آية 111.

6 **التاريخ والمؤرخون**، ص 5.

7 **المرجع السابق**، ص17.

8 الوغليسي، **أهمية التاريخ عند المسلمين والصهاينة**، ص 33.

9 **المرجع السابق**، ص 34.

10 الصالح، نضال، **سلطة التاريخ على السياسة، الحوار المتمدن**، ع 2659، 2009/05/27.

11 كيث، وايتلام، ترجمة: سحر الهنيدي، **اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 1999، ص 48.

12 **المرجع السابق**، ص309.

13 **المرجع السابق**، ص 38.

14 مضية، سعيد، **كيث وايتلام في كتابه اختلاق إسرائيل القديمة إسكات التاريخ الفلسطيني**، الحوار المتمدن، ع 3316، 2011/03/25.

15 كيث، **اختلاق إسرائيل القديمة**، ص 95.

16 الصالح، **سلطة التاريخ على السياسة، الحوار المتمدن**، ع 2659، 2009/05/27.

17 كيث، **اختلاق إسرائيل القديمة**، ص 49.

18 **المرجع السابق**، ص 94.

19 **المرجع السابق**، ص 11.

20 يوسف، محمد، **قراءة نقدية في مقولة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض**، بيروت، مؤسسة القدس الدولية، ط1، ص 42.

21 كيث، **اختلاق إسرائيل القديمة**، ص 11.

22 زاهر، مصطفى، **مقاربات في دراسة النص التوراتي**، دمشق، صفحات للدراسات والنشر، 2012، ص 256.

23 **موقع وزارة الخارجية الإسرائيلية**، وثيقة الاستقلال، 2013، https://mfa.gov.il/MFAAR/KeyDocuments/IndependenceDeclaration/Pages/megilat%20haatsmaut.aspx

24 يوسف، **قراءة نقدية في مقولة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض**، ص 12.

25 كيث، **اختلاق إسرائيل القديمة**، ص92.

26 كيث، **اختلاق إسرائيل القديمة**، ص 94.

27 مغربي، فؤاد، **فلسطين من وقت إلى أخر: ملاحظات حول التاريخ الشفوي**، مجلة رؤيتي تربوية، ع49-48، 2012، ص22.

28 يوسف، **قراءة نقدية في مقولة أرض بلا شعب لشعب بلا أرض**، ص 7.

29 عبد الوهاب، المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، القاهرة: دار الشرق، 1999، ج6، ص. 90.

30 محمد عمارة، **إسلامية الصراع حول القدس وفلسطين**، القاهرة، دار نهضة مصر، 1998 ص. 9.

31 **المصدر السابق**، ص 38.

32 المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ج6، ص 131-132.

33 عبد اللطيف، هاشم، **مفهوم الصهيونية عند عبد الوهاب المسيري**، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة الإسلامية، غزة، 2013، ص 70.

34 المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ج6، ص 131.

35 عبد اللطيف، **مفهوم الصهيونية عند عبد الوهاب المسيري**، ص 71.

36 مصطفى، شاكر، **الصراع العربي الصهيوني من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس**، مجلة شؤون عربية، جامعة الدول العربية 52، كانون أول/ ديسمبر 1987، ص11-13.

37 مصطفى، **الصراع العربي الصهيوني**، ص13.

38 **المصدر السابق**، ص 15.

39 العويسي، عبد الفتاح، **نظريات ونماذج بيت المقدس**، اسطنبول، دار الأصول العلمية، 2019، ص116.

40 القليبي، الشاذلي، **حطين: استلهام الماضي واستشراق المستقبل**، مجلة شؤون عربية، جامعة الدول العربية 52، كانون أول/ ديسمبر 1987، ص10.

41 أبو علم، عبد الله، الأردن دار الفلاح للنشر والتوزيع، د.ت، ج2، ص49.

42 مصطفى، شاكر، **الصراع قالوا التاريخ مجرد قيل وقال** العربي الصهيوني من الغزو الصليبي إلى الغزو الصهيوني وبالعكس، ص 17.

43 لويس، برنالد، ترجمة: نبيه أمين فارس، **العرب في التاريخ**، بيروت، دار العلم للملايين، 1954، ص 215.

44 مصطفى، **الصراع العربي الصهيوني**، ص 18.

45 **المصدر السابق**، ص 21.

46 المسيري، **موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية**، ج6، ص 131-132.

47 **المصدر السابق**، ج6، ص 132.